



بقلم : عارف العارف

« والمعروف ان المسجد الذي بناه عمر كان من الخشب، وكان يتسع لثلاثة الاف رجل من المصلين . هذا كل ما نعرفه عن مسجد عمر . ولم يقل لنا احد من المؤرخين الى متى ظل ذلك المسجد قائما ! وكل ما نعرفه عنه ان السائح المعروف (اركولف) الذي زار القدس سنة (٦٧٠ للميلاد) - اي بعد عمر باربع وثلاثين سنة - وهو اول من زار هذا الجزء من الشرق من سانحي الفرنجة بعد الفتح الاسلامي . قال : انه رأى المسجد الذي بناه عمر، وانه مربع الشكل، مبني من الواح خشبية وجذوع اشجار ضخمة، وانه يتسع لثلاثة الاف شخص من المصلين... » .

اولى القبلتين :

ان اسم (المسجد الاقصى) ، كان يطلق فيما مضى على البقعة التي يقوم عليها (الحرم القدسي) كله . وقبل ان يبنى المسجد الذي نسميه في يومنا هذا (المسجد الاقصى) ، وقد اقتبسه المسلمون من حادث الاسراء . يوم أسري بالنبي العربي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام الى هذه الديار . وفي ذلك تنزلت الآية الكريمة : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله » .

كان هذا في اوائل عهد النبي وقبل ان يفتح بيت المقدس على يد المسلمين . كان النبي محمد (صلعم) في السنة الاولى بعد الهجرة يولي وجهه وهو يصلي في المدينة ، شطر بيت المقدس معتبرا اياه . (بيت الله في ارضه) . ولا بد انك ايها القارئ الكريم تذكر الآيات التي نزلت ، والاحاديث النبوية التي وردت حول قدسية هذه الديار . ومنها الحديث الذي ورد على لسان النبي وقوله : (صخرة بيت المقدس من صخور الجنة) : هذه وما اليها من آيات واحاديث ، كان القصد منها توجيه نظر المسلمين وعرب الجزيرة عامة الى هذه الديار ، وما لها من اهمية بالنسبة الى الجزيرة العربية من النواحي : السياسية والاقتصادية والدينية . حتى ومن الناحية العسكرية الاستراتيجية . هذه النواحي التي لم تغرب عن بال النبي العربي والرسول البعيد النظر .

ولم يكتف النبي بحث المسلمين وتشويق العرب اجمعين على امتلاك هذه البقعة المباركة من البقاع المطلة على حوض البحر الابيض المتوسط ، عن طريق الآيات والاحاديث . بل اتخذ (بيت المقدس) قبلة في صلواته ، فراح يولي وجهه شطره . واقتفى المسلمون اثر نبهم فراحوا يولون وجوههم شطر القدس في صلواتهم ، ومن هنا جاءت التسمية المعروفة : « اولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين » .

واستمر المسلمون في اتخاذهم هذا البيت المقدس قبلة ثمانية عشر شهراً . ولما رأى النبي من غدر اليهود ومكرهم ما رأى ، غير قبلته واستبدلها بالكعبة ، وفي ذلك نزلت الآية الكريمة : « ولله المشرق والمغرب ، فاينما تولوا فثم وجه الله .. » ثم الآية الكريمة : « وقد نرى تقرب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره .. » .

هذا عن المسجد الاقصى في عهد الرسول .

واما في يومنا هذا فان اسم (المسجد الاقصى) يطلق على المسجد القائم في الناحية القبليّة من الحرم الشريف . وعلى بعد خمس مئة متر يوجه التتريب من مسجد الصخرة الى الجنوب : انه هو الذي بناه (عبد الملك بن مروان) بناء سنة (٧٤ - ٦٩٣ م) . اي بعد بناء مسجد الصخرة بستين . هذا ما قاله اكثر المؤرخين (اي ان الذي بنى المسجد هو عبد الملك) . ومنهم المقدسي (٩٨٥ م) ومجير الدين (١٤٩٦ م) . وفي كتاب (مثير الغرام بفضائل

القدس والشام) للامام (أحمد بن ابراهيم بن نعيم بن سرور المقدسي) (١٣٥٦ م) الشيء الكثير عن هذا المسجد . رأيت نسخة مصورة بالفوتوغراف عنه في مكتبة المتحف الفلسطيني ، واخرى لمخطوطة رأيتها في (دار الكتب الظاهرية) بدمشق ، وثالثة في (المكتبة الخالدية) بالقدس . وهناك نسختان اخريان احدهما في (دار الكتب المصرية) بالقاهرة والثانية في برلين .

ومن القائلين بهذا القول (اي ان الذي بناه هو عبد الملك بن مروان) ، المؤرخ الاسكندرني (ابن البطريق الملقب بـ (اوتيخيوس) (٩٣٩ م) .

واما المستر (مملتون) مدير مصلحة الآثار بحكومة فلسطين : فقد سمعته وهو يلقي محاضراته في قاعة المتحف الفلسطيني سنة (١٩٤٥ م) سمعته يقول : ان الذي بنى المسجد الاقصى هو (الوليد بن عبد الملك) ، وايس (عبد الملك) نفسه .

وفي اعتقادي ان البناء شرع فيه زمن (عبد الملك بن مروان) (٧٤ - ٦٩٣ م) ، وانه تم في زمن ابنه (الوليد) (٨٦ هـ - ٧٠٥ م) . ومن المؤرخين الذين ايدوا هذا القول : المستر (كرزويل) .

وعلى ذكر الوليد اقول :

انه هو الذي بنى المسجد الاموي في الشام ، وهو الذي عمر ووسع عددا كبيرا من المساجد في المدن التي افتتحها . وفي ايامه فتحت الاندلس والهند ، واتسع حكم العرب من الصين شرقا الى المحيط الاطلنطي غربا ، ومن البحر الاسود شمالا الى صعيد مصر جنوبا .

وذكر (العمري) في كتابه (التعريف ج ٢ ص ١٨٥) ، انه (اي الوليد) اتي بالفلسطين (القسطنطينية) وزين بها مساجد الشام ومكة والمدينة والقدس .

هناك نقطتان قد تثيران التساؤل :

اولهما : لماذا يطلق بعض المؤرخين على هذا المسجد (مسجد عمر ؟) وابن كان يقوم المسجد الذي بناه عمر ؟

والثانية : اصحيح ما يقال ان كان هناك وفي الموضع الذي بني فيه المسجد الاقصى كنيسة ؟ وان تلك الكنيسة هي التي بناها الامبراطور (جوستانيان) (٥٤٣ م) وكانت تدعى (كنيسة العذراء الجديدة) ؟

مسجد عمر :

واما (مسجد عمر) فكل ما نعرفه عنه ان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، عندما فتح ايليا (بيت المقدس) (وكان ذلك سنة ١٥ للهجرة اي ٦٣٦ م) ، كان اول عمل عمله بعد ان استقبله سكان المدينة وعلى رأسهم (البطريق صفرونيوس) ، ان ام في صحبة البطريق كنيسة القيامة . وهناك اعطى بطارقة (ايليا) عهد: المشهور (بأن لا يعتدي احد على انفسهم واموالهم وكنائسهم وصلبانهم) الى اخر ما جاء في ذلك العهد .

والمعروف ايضا انه (اي عمر) رفض الصلاة في داخل الكنيسة لئلا يتخذ المسلمون من بعده ذلك حجة لاكتساب حق لم يكن لهم في الكنيسة ، ولكنه طلب من البطريق ان يدلّه على موضع يبني فيه مسجدا ، فاخذ (صفرونيوس) معه ودله على مكان الهيكل . وكان هذا في حالة خراب وكان المسيحيون قد هجروه هجرا تاما . وفي قول انهم اتخذوه مزبلة . فراح (عمر) وصحبه ينضحون التراب عن الصخرة بأيديهم الى ان بانّت ، وهناك بنى (عمر) مسجدا .

والمعروف ان المسجد الذي بناه (عمر) كان من الخشب وكان يتسع لثلاثة الاف رجل من المصلين . هذا كل ما نعرفه عن مسجد (عمر) . ولم يقل لنا احد من المؤرخين الى متى ظل ذلك المسجد قائما ؟ وكل ما نعرفه عنه ان السائح المعروف (اركولف) الذي زار القدس سنة (٦٧٠ م) - اي بعد عمر باريح وثلاثين سنة - وهو اول من زار هذا الجزء من الشرق من سائحى الفرنجة بعد الفتح الاسلامي . قال : انه رأى المسجد الذي بناه عمر وانه مربع الشكل مبني من الواح خشبية ، وجذوع اشجار ضخمة ، وانه يتسع لثلاثة الاف شخص من المصلين . ولم يرد حتى الان دليل تاريخي قاطع يدلنا على الموضع الذي كان يقوم عليه مسجد (عمر) ، وهل كان يقوم على الصخرة نفسها كما قال الاستاذ (محمد الحضري) استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية ، في مقال له نشرته (المقتطف) في مجلدها (٦١) ، ام على جانب الصخرة التي نضح التراب عنها (عمر) كما قال (اوتنجيوس) المعروف بابن البطريق .

ومما قاله ابن البطريق : ان (عمر) سیر الصخرة في اخر المسجد ، او كما قال (ريتشارد هارتمان) ان المسجد الذي بناه (عمر) كان غرب الصخرة ، او منها الى الجنوب الغربي . وهناك كثيرون يعتقدون ان مسجد (عمر) كان في المكان الذي نسميه اليوم جامع (عمر) في الزاوية الشرقية القبلية من المسجد الحالي الذي نسميه (المسجد الاقصى) . وقد لا يكون قولهم هذا بعيدا عن الصواب لان السائح المتقدم ذكره (اركولف) وهو الذي قلنا عنه انه اول من رأى مسجد (عمر) من الفرنجة بعد الفتح الاسلامي . . قال ان ذلك المسجد كان بجوار الحائط من الشرق .

ولنبحث الآن النقطة الثانية وهي : هل كانت هناك في الموضع الذي بني فيه المسجد الاقصى كنيسة ام لا . . ؟

واختلف المؤرخون في هذا الموضوع :

فمنهم من قال انه كانت هناك كنيسة ، وان تلك الكنيسة هي التي بناها جوستانيان (٥٤٣م) وانها كانت تدعى (كنيسة العذراء الجديدة) . وان المهندس الذي وضع تصميم تلك الكنيسة هو (تيودورس) . ومنهم من جاوز هذا الى حد القول ان المسجد الاقصى الحالي هو الكنيسة ايها . لا قدم ولا اخر .

والقائلون بهذا القول كثيرون . نذكر منهم : (فليكس فابري) و (فيلب داويرزا) و (الدكتور ريشارد سون) و (ادوارد هوغ) و (وادوار روبنسون) و (جورج ويليام) و (بلكيورن) و (غاي لوشرنج) و (شليك) .

وهناك اخرون قالوا انه لم يكن هناك في موضع المسجد الاقصى الحالي اية كنيسة ، وان المسيحيين لم يعظموا هذا الموضع الذي كان يقوم عليه هيكل بن اسرائيل ، ولم يبنوا عليه كنيسة . ذلك لان (السيد المسيح) كان يكره منطقة الهيكل . وكرهه هذا واضح مما ورد في الانجيل على لسانه : « هوذا بيتكم بترك لكم خرابا » . وقال ايضا : « لا يبنى ها هنا حجير على حجير الا يهدم ويخرب » ولهذا ترك النصارى هذا الموضع خرابا ولم يبنوا فيه اية كنيسة . هذا ما قاله المؤرخ الاسكندري المعروف (ابن البطريق) . وكذلك المؤرخ (راييس) والمؤرخ (طوبلر) والمؤرخ (دغيلد مايستر) .

ومن المؤرخين الذين انكروا وجود كنائس في منطقة الهيكل المؤرخ (جيمس فرغسون) . فقد قال هذا في (الصفحة ١١٨) من كتابه : « ان المسجد الاقصى ليس بكنيسة جوستانيان . ولا صحة للقول القائل ان (المسجد الاقصى) بني في الموضع الذي تقوم عليه الكنيسة . فلا القناطر ولا القصور ولا الاعمدة والتيجان التي فوق الاعمدة ، من النوع الذي كان معروفا في عهد (جوستانيان) .

وبناء المسجد نفسه لا يشبه اية كنيسة من الكنائس التي بنيت في ذلك العهد . ولم يكن لاية كنيسة من الكنائس التي بنيت في تلك العهود قبة كقبة المسجد الاقصى . اصف الى ذلك انه لا يعقل ان يبنى (جوستانيان) كنيسة في وسط المكان الذي كان يقوم عليه هيكل سليمان ، وهو الرجل الذي اشتهر بالزهد والتقوى » .

وقرأت في (الصفحة ٢٤٦) من كتاب العالم المشهور الاب (مرمرجي الدومنيكي) وعنوانه (بلدانية فلسطين العربية) نقلا عن المؤرخ الاسكندري المشهور (اوتحيوس) انه قال : « ان النصارى لم يبنوا اية كنيسة في منطقة الهيكل بسبب غضب السيد المسيح على تلك المنطقة ودعائه عليها بالخراب » . ولم يذكر التاريخ ان المسلمين سلبوا النصارى اية كنيسة من كنائسهم اثناء الفتح الاسلامي . ولو فعلوا ذلك لاقام المؤرخون المسيحيون الضعيج وانتقدوا اعمال المسلمين . ولكن العهدة العمرية التي اعطاها (عمر بن الخطاب) الى (البطريق صفرونيوس) والى نصارى (ايليا) تشهد بعكس ذلك .

وهناك قول ، ايده ثلاثة من كبار المؤرخين من الفرنجة وهم : (المستر كرزويل) و (كليرمانت غانو) و (بيرفنانس) .

وهو قول (وسط) بين المؤيدين لمبدأ الكنيسة والمعارضين لها . فان من رأى هؤلاء الثلاثة ان الكنيسة التي بناها (جوستانيان) كانت تقوم على السفح الشرقي لجبل (صهيون) . فوق الارض المرتفعة التي تؤلف جزءاً من الحي اليهودي والمطلّة على (وادي الترويين) . ذلك لان اثنين من المؤرخين المعاصرين للتاريخ الذي بنيت فيه كنيسة (جوستانيان) وهما : (بروفويوس) و (سيريل سكتيوبولس) .

قالا : ان كنيسة (جوستانيان) بنيت فوق اعلى هضبة من هضاب القدس ، وان البنائين اضطروا لان يبنوا مبان ارضية جسيمة من الناحية الشرقية ، ليتمكنوا من تمهيد الارض التي اقيمت عليها الكنيسة وتسويتها . والمعروف ان جبل (صهيون) اعلى من جبل (موريا) الذي يقوم عليه المسجد الاقصى . وقالوا ايضا : « ان الكنيسة تمتد من الغرب الى الشرق مع ان المسجد الاقصى يمتد من الجنوب الى الشمال » .

هذا ما نعرفه عن (المسجد الاقصى) في اول عهده . وقد طرأت عليه مع الزمن تغييرات كثيرة بسبب الزلازل والعواصف والامطار . وقد لا يتسع المجال هنـا ان نذكر جميع التغييرات والاضافات التي ادخلت على المسجد . . ولهذا فاني اريد ان اجتزىء بذكر الـاهـم الذي لا بد من ذكره : فأقول :

كان (المسجد الاقصى) في اوئل عهده الاموى اوسع مما عليه الان . وكان اول خراب الم به بسبب الزلزال الذي حدث في اواخر الحكم الاموى (٧٤٦م) . وقد سقط يومئذ

جناحاه من الشرق والغرب . ولما جاء (ابو جعفر المنصور) ثاني الخلفاء العباسيين امر بقلع الصفائح المصنوعة من الذهب والفضة التي كانت على الابواب ، وضربت دنائير وانفقت على تعميره سنة (٧٧١ م) .

ثم حدث زلزال اخر (٧٧٤م) فوق البناء الذي امر به المنصور واصبح المسجد خرابا . ولما جاء (المهدى) امر ببنائه . فبني (٧٨٠م) . وقد انقص المهندسون يومئذ من طوله وزادوا في عرضه . وحدث زلزال اخر في زمن الفاطميين (١٠٣٣م) فخرّب المسجد الذي عمره (المهدى) . فعمره الخليفة الفاطمي (الظاهر لاعزاز دين الله) (١٠٣٤م) . قد ضيق البناء العباسي بحذف اربعة اروقة من الجانب الشرقي واربعة من الجانب الغربي . هناك كتابة بالخط الكوفي والفسيفساء المذهبة تشير الى ما صنعه (الظاهر لاعزاز دين الله) . تجدونها اذا ما دخلتم المسجد من بابه الكبير الاوسط منقوشة على الواجهة الشمالية للعقد الذي يحمل القبة . ومن بقايا العمارة الفاطمية :

(الاروقة الثلاثة) التي ترونها غربي المسجد . ثم (الرواق الاوسط) ارضه واعمدته الغربية فقط . ثم (الاقواس الكائنة بين الرواق الاوسط والاروقة الثلاثة من الغرب) . ثم (القبة الحالية ، ورقبتها) . ثم (الابواب السبعة التي في شمال المسجد) .

ما فعله الصليبيون :

وقد غير الصليبيون معالم الاقصى عندما احتلوا القدس عام (١٠٩٩م) فاتخذوا جانبا منه كنيسة، والجانب الاخر مسكنا لفرسان الهيكل، و اضافوا اليه من الناحية الغربية بناء جعلوه مستودعا لذخائرهم . واما السرايب التي تحت الاقصى (ويسمى المقدسيون الاقصى القديمة) والتي كانت فيما مضى جزءا من (هيكل سليمان) فقد اتخذها الصليبيون اسطبلا لحيوهم .

ما فعله صلاح الدين :

وعندما استرد (صلاح الدين) بيت المقدس من الصليبيين (١١٨٧ م) ارجع المسجد الاقصى الى ما كان عليه قبل دخولهم البلاد . فحى الصور وعمر ما كان قد خرب من المسجد.

واحضر من الرخام ومن الفص المذهب القسطنطيني (الفسيفساء) ما لا يوجد مثله . ووجد
المحراب وزينه بالفسيفساء . كما زين القبة بالفسيفساء . وهناك كتابة بالفسيفساء المذهبة فوق
المحراب تشير الى مافعله (صلاح الدين) .

واتى (صلاح الدين) بالمنبر المصنوع من الخشب من ارض لبنان والمرصع بالعاج والصدف
من حلب . انه هو الذي كان (نور الدين محمود بن زنكي) صنعه سنة (١١٦٩ م) . وكان (نور
الدين) ينوي احتلال القدس . واما الرواق الذي ترونه امامكم ، اذا ما أقبلتم نحو المسجد ،
والذي يكون الواجهة الشمالية وهو مؤلف من سبعة اقواس متصورة ، يقابل كل قوس منها
بابا من ابواب المسجد السبعة ويغطي الاقواس سبعة اقبية مصلبة . فانه من صنع الملك المعظم
(عيسى بن الملك العادل ابي بكر) من ملوك بني ايوب وقد بناه سنة (٦١٤ هـ) . اي (١٢١٧ م) .

ما فعله المماليك :

وعني المماليك ايضا بعمارة المسجد الاقصى ، فالملك المنصور (سيف الدين قلاوون) هو
الذي عمر سقف المسجد الاقصى من ناحيته الشمالية مما يلي الغرب عند جامع الانبياء (١٢٨٧م) .
والملك الناصر محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون هو الذي جدد القبة (١٣٢٧ م) .
وهناك حول القبة من الداخل كتابة بالخط المعروف بالثلث تشير الى ما عمره هذا الملك :
وهو الذي وضع الرخام في صدر المسجد ، وقد تم ذلك بمعرفة (ناصر الدين) ناظر الحرمين في
القدس والخليل . وكذلك قل عن الشهابيك من الجص المعزج بالزجاج الملون في صدر
المسجد . وقد فتح الشباكين اللذين عن يمين المحراب ويساره .

ما فعله الاتراك :

وفي زمن الاتراك العثمانيين . رمم القبة السلطان (محمود بن السلطان عبد الحميد) (١٨١٧م)
رممها علي يد (الحاج سليمان باشا) والى اىالة صيدا وطرابلس الشام . عرفنا ذلك من كتابة
قرأناها في رقة القبة من الداخل وتحت الشهابيك غير النافذة . . وفي كتابة منقوشة على

بلاطة ترونها على يساركم قبل ان تدخلوا المسجد من بابه الكبير الاوسط . . ووضع السلطان (عبد الحميد) الزجاج الملون الذي نراه في عدد من الشبايك (١٨٧٤ م). ثم ان السلطان (عبد الحميد الثاني) فرش السجاد عام (١٨٧٦).

واما الاروقة الثلاثة التي ترونها شرقي المسجد اذا ما دخلتموه من بابه الكبير، فلها من زمن المسجد الاسلامي الاعلى . وكذلك قل عن الاعمدة والاقواس التي ترتكز عليها القبة في يومنا هذا .

هذا غيض من فيض مما نعرف عن (المسجد الاقص) ، منذ ان بناه الخليفة الاموي (عبد الملك بن مروان) (٥٧٤ - ٦٩٣ م) الى ان عمره المجلس الاسلامي الاعلى (١٣٦٣ هـ - ١٩٤٣ م).

ولم يسلم المسجد من اذى اليهود في حرب فلسطين. تلك الحرب التي قامت بينهم وبين العرب اثر قرار التقسيم (٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ م). اذا كان اليهود عن قصد يصوبون نيران مدافعهم الى هذا المسجد، قاصدين هدمه وبناء هيكلهم من جديد . ولكن خاب فألهم . اذ كان للبيت رب يحميه :

ولما وقف القتال في بيت المقدس وسيطر الجيش العربي الاردني على المنطقة التي تقع فيها الحرم القدسي ، امر الملك (عبد الله بن الحسين) ، بتجديد شباكين من شبايك المسجد الاقصى في جداره القبلي عام (١٩٤٩) تلك الشبايك التي اعطيت اثناء القتال . كما امر بصنع باب على الطراز العربي الاندلسي لمحراب (زكريا) عام (١٩٥١) . ويعتبر هذا الباب تحفة بديعة من التحف الاسلامية . وهو مصنوع من خشب الزان :

وقام المهندسون يشرفون على عمارة المسجد الاقصى من جديد، وترميم ما اصاب جدرانه الداخلية من العطب، وازالوا سقفه ، قاصدين رفع الصفائح الرصاصية التي تكسو القبة ، واستبدالها بصفائح من الالونيوم المذهب .. كما فعلوا مثل ذلك في قبة (الصخرة المشرفة).

عارف العارف

القدس :